

أضواء البيان

@ 259 @ فَيَهِنَنَّ وَإِنْ مِّنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَا كِنَ لَّآ
تَفْقَهُ هُنَّ تَسْبِيحَهُمْ } ، ومنها قوله تعالى : { وَسَخَّرْنَا مَعَ * دَاوُدَ
الْجِبَالَ يُسَبِّحُونَ } ، إلى غير ذلك من الآيات . .
ومن الأحاديث الصحيحة الدالَّة على ذلك قصة حنين الجذع ، الذي كان يخطب عليه صلى الله
عليه وسلم لما انتقل بالخطبة إلى المنبر ، وهي في صحيح البخاري وغيره . .
ومنها ما ثبت في صحيح مسلم عن النبي صلى الله عليه وسلم ، أنه قال : (إني لأعرف حجراً
كان يسلم عليّ في مكة) ، وأمثال هذا كثيرة . فكل ذلك المذكور في الكتاب والسنة
إنما يكون بإدراك يعلمه اللّٰه ، ونحن لا نعلمه ؛ كما قال تعالى : { وَلَا كِنَ لَّآ
تَفْقَهُ هُنَّ تَسْبِيحَهُمْ } ، ولو كان المراد بتسبيح الجمادات دلالتها على خالقها لكنا
نفقهه ، كما هو معلوم ، وقد دلّت عليه آيات كثيرة . .
وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة : { وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِذْ نَزَّهَ كَانًا ظَلُومًا
جَهُولًا } ، الظاهر أن المراد بالإنسان آدم عليه وعلى نبيّنا الصّلاة والسّلام ، وأن
الضمير في قوله : { إِذْ نَزَّهَ كَانًا ظَلُومًا جَهُولًا } ، راجع للفظ : { الْإِنْسَانُ } ،
مجرّداً عن إرادة المذكور منه ، الذي هو آدم . .
والمعنى : أنه أي الإنسان الذي لا يحفظ الأمانة { كَانًا ظَلُومًا جَهُولًا } ، أي : كثير
الظلم والجهل ، والدليل على هذا أمران : .
أحدهما : قرينة قرآنيّة دالّة على انقسام الإنسان في حمل الأمانة المذكورة إلى معذّب
ومرحوم في قوله تعالى بعده ، متّصلاً به : { لَّيُعَذِّبَ اللّٰهُ الْمُؤْمِنَاتِ الْفٰقِئِينَ
وَالْمُؤْمِنَاتِ الْفٰقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللّٰهُ عَلَىٰ
الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللّٰهُ غَفُورًا رّٰحِيمًا } ، فدلّ هذا على
أن الظلوم الجهول من الإنسان هو المعذّب ، والعياذ باللّٰه ، وهم المنافقون والمنافقات ،
والمشركون والمشركات ، دون المؤمنين والمؤمنات . واللام في قوله : { لَّيُعَذِّبَ } : لام
التعليل ، وهي متعلّقة بقوله : { وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ } . .
الأمر الثاني : أن الأسلوب المذكور الذي هو رجوع الضمير إلى مجرد اللفظ دون اعتبار
المعنى التفصيلي معروف في اللغة التي نزل بها القرآن ، وقد جاء فعلاً في آية من كتاب
اللّٰه ، وهي قوله تعالى { وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ
إِلَّا فِي كِتَابٍ } ؛

